

الفرد المبدع بما يحمله من تميز وبما يشترك فيه من خصائص وموروثات مع غيره من المنتمين إلى جنسه وثقافته. وفي تاريخ الآداب العالمية الكثير من الأعمال التي تسجل تفاعلاً ذاتياً بين الفرد وبين ثقافات الشعوب الأخرى سواء اتخذ ذلك التفاعل هيئة التآثر والتأثير، أو انبثق في شكل مواقف وتأملات.

غير أن هذا التفاعل ليس مسالماً وطبيعياً في كل الأحوال، بل غالباً ما يكون له جانب إشكالي، وهذا الجانب ينبثق من أن الوقوف أمام الآخر - بما أنه وقوف أمام الاختلاف ومواجهة للمغايرة - هو موقف كثيراً ما تتكبد فيه الذات شعوراً بالنقص. فالمختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو ما لا تملكه. أي أن الذات في مواجهة الآخر، إنما تواجه نفسها منقوصة، تنظر في مرآة حاجتها وعوزها. الآخر حضور يحتد فيه شعور الذات بذاتها. وتزداد رغبته بالاكتمال عبر الامتزاج به أو بما يرمز إليه. ومؤدى هذا كله هو أن وقفة الذات أمام الآخر، باختلافه الثقافي - الحضاري، هي وقفة مشبعة بالقلق، بل هي وقفة سرعان ما تتلبس بالرحيل، فتصير انطلاقة نحو المختلف أملاً في الوصول إلى الكمال الذي لا يتحقق طبعاً فلا يتبقى سوى آثار الرحيل إليه.

هذه الملاحظات أسوقها وفي ذهني هذان النصان اللذان ابتدأت ملاحظاتي بالإشارة إليهما. فنحن فعلاً إزاء قصيدتين من أجمل قصائد الارتحال نحو الآخر بكل ما في ذلك الارتحال من قلق وشوق وتوهج إبداعي. فرحلة البحري نحو إيوان كسرى هي في جانبها الأهم رحلة نحو ثقافة مختلفة والتحام بغيرية الآخر، رحلة تفضي إلى مكاشفة ذاتية من خلال مواجهة المختلف. وكذلك هي رحلة بيتس نحو حضارة بيزنطة وأثارها الفنية التي تحمل بالنسبة له خصوصية تميزها عن التوجهات الثقافية والإبداعية الكبرى في حضارة الغرب.

ولعلنا ننطلق في مقارنتنا هذه من ملاحظة أن الرحيل نحو الآخر يبدأ في كلتا القصيدتين من همّ ذاتي، أي من معاناة فردية، وإن اختلف الإطار الذي تنطلق منه تلك المعاناة. لكن المهم هنا أن نتبين أن تلك المعاناة تُشكل المبرر الموضوعي والفني لارتحال الذات نحو الآخر. ولو أردنا التعرف على طبيعة تلك المعاناة لوجدنا الظروف التاريخية، سواء على المستوى الفردي أو مستوى العصر، تشكل عاملاً رئيسياً من عواملها بالإضافة إلى كونها إطاراً مهماً لا بد من استحضاره. فالبحري حين يطلع في